التعريف والنقد

خريدة القصر وجريدة العصر

قسم شعراء الشام ، الجزء الأول

ألّفه العماد الاصفهاني وحقّقه الدكتور شكري فيصل ونشره المجمع العلمي العربي في ١٨ + ٦٩٠ صفحة (١) و ٨ رواميز – المطبعة الهاشمية بدمشق ، سنة ١٩٥٥

عُنِي العرب ، في مطلع عصر التأليف ، بالشعراء القدامى ؛ فجمعوا ما أُثِر عنهم وشرحوه ونقدوه . ثم جعلوا أولئك الشعراء طبقاتٍ في الزمان وفي الإتقان ، وترجموا لهم وقوّموهم . ولكنّ هؤلاء المؤلفين لم يلتفتوا إلى عصريهم ، ولم يُقرّوا لهم بأيسر الفضل ؛ ولذلك دواعٍ ، من أعظمها ، فيما نظن ، عناية هؤلاء المؤلفين الأوائل بسلامة اللغة وصحة التعبير قبل كل شيء ، وهما إنما يُلتَمسان في عصري الجاهلية وصدر الإسلام .

ثم دخل الشعر العربي في طور جديد ، ونبغ فيه مِن المتأخرين مَن لا يقلّ عن المتقدمين ، في إشراق الديباجة وصحة الحوك وجمال المعاني والصور وتنوع الأغراض ؛ ففطن القوم إلى هذا الشعر الجيّد الجديد ، وأخذوا يؤلفون في طبقات الشعراء المحدثين والمولّدين ، ويعكفون على تذوّق منظومهم ، وينزلونهم المنزلة التي هم أحق بها . وفي المكتبة العربية تصانيف كثيرة ، كتبها أصحابها في هذا الشعر الحديث وشرحه ونقده ، وفي شعراء أواخر القرن الثالث وما بعده

---

(١) أخطأ الطابع في ترقيم بعض الصفحات ، فانتقل من ص ١٦٠ الى ص ١٧٧ ، وتجاوز الأرقام ١٦١ إلى ١٧٦ ، وعلى ذلك يقع نص الكتاب في ٦٧٤ صفحة فقط .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إلى يوم الناس هذا . ومن أجلّ هذه التصانيف كتاب (خريدة القصر وجريدة العصر) .

مؤلف هذا الكتاب هو عماد الدين القرشي الاصفهاني الكاتب (٥١٩ — ٥٩٧هـ). نشأ في فارس ، وطوّف في بلاد العراق والشام ومصر ، ولقي فضلاءها وأدباءها ، وأخذ عن كبار علمائها وشيوخها ، وصحب نور الدين وصلاح الدين ، وشهد حروبهما مع الفرنجة . وكان عالماً فاضلاً ، كاتباً شاعراً ، متمكناً من الفارسية ، مالكاً ناصية العربية ، طويل الباع فيها ، مولعاً بالنثر المصنوع المعقّد ، يصوغ به رسائله ، ويفرغ فيه ما يؤلفه في تاريخ عصره الأدبي والحربي والسياسي ، ويكثر من التسجيع والترصيع والتجنيس والمطابقة ، حتى ليعسر على الحافظ استظهار أسماء بعض كتبه ، ككتابه (نصرة الفترة وعصرة القطرة) في تاريخ السلاجقة ، و (الفتح القسي في الفتح القدسي) في فتوحات صلاح الدين ، و (نحلة الرحلة وحلية العطلة) في اضطراب البلاد بعد موت صلاح الدين ، و (خريدة القصر وجريدة العصر) الذي نعرّف به هنا .

ويطول بنا الكلام إذا شئنا التحدث عن المصنفات التي ألف العماد كتاب (الخريدة) على نسقها ، وعن الكتب التي أُلفت بعده على غراره ، وعن المؤلفين الذين اعتمدوا (الخريدة) ، ونهلوا من معينها ، كياقوت وابن خلكان وابن شاكر والصفدي وابن السبكي وابن الفُوَطي وسبط ابن الجوزي وأبي شامة وابن كثير ...[1] فنقتصر هنا على التعريف (بالخريدة) فحسب .

كسّر العماد كتابه هذا على اثني عشر جزءاً ، جعلها أقساماً أربعة ؛ فقصر القسم الأول على شعراء العراق ، ووقف الثاني على شعراء العجم وفارس وخراسان ، وخصّ الثالث بشعراء الشام والموصل وجزيرة بني ربيعة وديار بكر وأضاف إلى هذا القسم شعراء الحجاز وتهامة واليمن ، وجمع في الرابع شعراء مصر وصقلّيّة

(١) اقرأ كلمة في ذلك كله في : (الخريدة) ، القسم العراقي ، الجزء الأول ، المقدمة : ص ص ٨٢ — ٩٦ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والمغرب وبلاد الأندلس . ولئن انفسحت رقعة مواطن هؤلاء الشعراء في المكان (فامتدت من أقصى المشرق العربي آنئذ إلى أقصى المغرب) فقد ضاقت في الزمان ، إذ يقول العماد : « وقد ذكرتُ أهل عصري ، وأهل عصر آبائي وأعمامي ، فالكتاب مشتمل على العصرين : السالف الماضي ، والحاضر النامي . وأكثرُ ما أوردتُه شعرُ مَن أروي عن واحد ، عنه ، إنْ لم أكن أدركتُه وسمعته منه . ولم أقتصر على المنتقى المنتقد ، والمتنخّل المنتخب ، بل ذكرتُ لكل شاعر ما وقع إليّ من شعره ، وأثبتّه : إما لمعنى غريب ، أو لفظ مستحسن ، أو أسلوب رائق .... »[1] . وقد اعتمد الدكتور شكري فيصل ماقاله ابن خلكان في ترجمته العماد ، إذ جعل الخريدة تحتوي على تراجم (الشعراء الذين كانوا بعد المائة الخامسة إلى سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة)[2] . وما نرى قولَ ابن خلكان حقًّا ، ففي الخريدة مثلاً ترجمة للشريف أبي الحسين علي بن حيدرة العقيلي ، وكان يعيش في النصف الأول من القرن الخامس[3] ، وأخرى للباخرزي صاحب « دُمية القصر » وقد توفي سنة ٤٦٧ هـ ، وثالثة للأمير تاج الملوك أخي صلاح الدين ، وقد توفي سنة ٥٧٩ هـ .

وقد يحسب القارئ بادئ بدء أن (الخريدة) موقوفة على الفحول من الشعراء ، ولكنه لا يلبث ، إذا ما مضى في مطالعتها ، أن يرى فيها شعراً للمغمورين منهم ، بل ولبعض الفقهاء والمحدثين وأبناء الأجناد ، ثم يرى ، إلى جانب هذا الشعر أيضاً ، قدراً وافراً من نثر عصر العماد ، وقد غلبتْ على أكثره الصنعةُ ، وأثقله البديع ، فغاضت محاسن معانيه ، بالتأنق المتكلف في زخرفة مبانيه ؛ ولا عجب ، فالعصر عصر القاضي الفاضل وليّ نعمة العماد ، وأستاذه في هذا المذهب الفني ، ورافده في تأليف جزء الخريدة المتعلق بالمغرب .

---

(١) المصدر السابق ١ / ٧ .
(٢) راجع (الخريدة) ، قسم شعراء الشام ، الجزء الأول ، المقدمة : ص ٣ .
(٣) راجع (الخريدة) ، قسم شعراء مصر ، الجزء الثاني ، ص ص ٦٢ – ٦٣ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

من عادة العماد في (الخريدة) أن يوطئ للكلام على الشاعر أو الكاتب بترجمة مسجّعة له ، ويعقّب على ذلك بايراد نتف من أخباره ، وأنباذٍ من رسائله أو أشعاره ، وقد ينسق هذه الأشعار على القوافي المتلاحقة على حروف المعجم ... ، ولكنه لا يلتزم ذلك كله دائماً ، ولا يتبع في التوطئة نسقاً واحداً ؛ فقد يغفل ذكر تاريخ ولادة المترجَم له أو وفاته ، أو يقتصر على ذكر اسمه وينتقل إلى ذكر شيء مما اختاره له . ووصفُه لهؤلاء الأدباء غامض مبهم في الحين بعد الحين ، فالعماد يُضفي على أكثرهم ثوباً واحداً في معناه ، من الإشادة بمحاسنهم ، والتنويه ببراعتهم ، فكلهم « قسٌّ في الفصاحة ، وقيسٌ في الحصافة ، وحاتم وعمرو في السماحة والحماسة » . وقد يكون هذا الثوب من الثناء ضافياً فضفاضاً على بعضهم ، وضيقاً قصيراً على الآخرين . فأكثر أحكامه النقديه لا يعيننا اليوم على إحلال الشاعر المنزلة التي يستحق ، بل ولا على تبيّن المنزلة التي كانت له عند العماد وأهل عصره ، وليست (الخريدة) في جملتها إلا قصائد ومقطّعات من الشعر وشذوراً من النثر ، اختارها أصحابها أو انتقاها المؤلف ، منها الحسن ومنها ما هو دون ذلك ، تسبقها توطئة في التعريف بصاحبها ، ليست من حرّ النقد الأدبي كما نفهمه اليوم إلا في الندرى . على أن (الخريدة) رغم هذا كله قد تعين مَن يتصدى لكتابة تاريخ الأدب والنقد في القرنين الخامس والسادس .

وقد يودع العماد (الخريدة) نتفاً من أشعاره ، ويقول في بعضها : « وما أوردتُها لجودتها ، على أنها ما تقصر عن الغاية ، بل لمناسبتها وكونها لائقة بهذا الموضوع . »[1] .

* * *

نهض بعض أفاضل علماء العراق ، بتكليف من المجمع العلمي العراقي منذ أكثر من خمس سنوات ، لتحقيق القسم العراقي من (الخريدة) ،

(١) الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ١ / ٣٠ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وصدر في أوائل هذا العام (١٩٥٦ م) الجزء الأول منه ، كما كان قد صدر في القاهرة قسم شعراء مصر ، الجزء الأول سنة ١٩٥١ والجزء الثاني سنة ١٩٥٢ م .

أما القسم الشامي فقد عهد المجمع العلمي العربي بتحقيقه إلى الدكتور شكري فيصل ، الأستاذ في كلية الآداب في الجامعة السورية ، وصدر الجزء الأول منه في أواخر العام ١٩٥٥ م ، واعتمد المحقق خمسة مخطوطات تتفاوت قيمها ، ولكن أجلّها مخطوط المكتبة الوطنية في باريز ، ويقدّر الدكتور فيصل أن يقع قسم شعراء الشام في ثلاثة أجزاء ، ويرجو - عندما يفرغ من نشرها - أن يعقّب عليها بدراسة (للخريدة) ومؤلفها ، وللشعر في هذه الفترة .

وفي هذا الجزء الأول من قسم شعراء الشام ترجمة ومختارات لخمسة وأربعين علَماً : من شعراء بلاد الساحل الشامي (٣) وشعراء دمشق (١٠) وعلماء دمشق والقدس (١٠) وفضلاء دمشق (٨) وحمص (٢) وحماة (٢) وبني منقذ (١٠) . وفي تضاعيف هذا الجزء فصول ورسائل نثرية طويلة ، كرسالة (النسر والبلبل) للمهذب الدمشقي ، ورسالة في الصيد والشراب ، للأمير يغمر بن عيسي .

أنفق المحقق الفاضل ، مشكوراً محموداً ، الكثير من الجهد والوقت في إخراج هذا الجزء للناس ، وطبعه طبعةً علمية نقدية منقّحة صحيحة ، فجمع ما تيسّر له من أصول الكتاب ، وقارن بين الروايات ، وتخيّر أفضلها ، وضبط الكلمات التي يتوقّف جمهور القرّاء عندها ، وشرح معنى الغريب منها ، وترجم لمن وردت أسماؤهم في المتن ، واستند في ذلك إلى المراجع العربية الموثوقة ، فيسّر بذلك قراءة هذا السفر الثمين ، وهوّن الإفادة منه على أيسر وجه وأهدى سبيل . ووطّأ المحقق بمقدمة تعرّف بالكتاب ومؤلفه ، وتصف الأصول التي اعتمدها ، تقفوها روامز هذه الأصول . ثم ألحق بهذا الجزء مستدركاً أودعه ما بدا له فيه رأي مستأنف بعد أن سبق طبعه ، وعقّب على ذلك بستة فهارس لأبواب هذا الجزء ، وأسماء شعرائه ، والمختار من منظومه ومنثوره ، وللأماكن ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والأعلام ، والمراجع والكتب الواردة في متنه وحواشيه . ووضعُ فهارس متقنة وافية لمثل هذا الكتاب الوسيع أمر محتّم في كل طبعة نقدية ، ولا يقدرها حق قدرها إلا الباحثون المتتبعون ، ولا يعرف عناء وضعها على الوجه الأكمل إلا من اضطلع بمثل هذا الأمر وكابد مشقاته . وفهارس هذا الجزء متقنة وافية تدل على الدقة والدأب والتبصر ؛ ولكننا كنا نودّ لو تبسط المحقق في التعريف بالكتب التي اعتمدها هو أو أشار اليها العماد، في فهرس (المراجع والكتب) ، فذكر فيه حذاء المطبوع منها الطبعة والطابع ومكان الطبع وزمانه ؛ والى جانب المخطوط خزانته ورقمه ووصفه بايجاز . وليس في فهرس (الأعلام) ما يميز صفحات الكتاب وحواشيه التي ورد فيها تعريف وافٍ بالعَلَم من الصفحات التي أشير فيها إليه إشارة عابرة ، وفي العادة أن يوماً إلى ذلك بأرقام متباينة . هذا واننا لنرجو أن يقوم المحقق أو أحد تلامذته ـ بعد أن يتم نشر الكتاب بأصباره ـ بوضع فهرس آخر لألفاظ (الخريدة) التي تنكرها المعاجم ، أو تغفل المعنى الذي حُمِّلَتْه تلك الألفاظ في ذلك العصر ، حتى تتسنى معرفة لغة أدبائه ، ويمهّد بذلك إلى وضع معجم تاريخي بأطوار لغتنا العربية .

وقد يؤخذ على المحقق بعض الحواشي ، فهو مثلاً إذا ورد اسم الإمام الشافعي في المتن (ص ٣٣) ذكر في الحاشية : «أنه أشعر الناس وآدبهم» . وليس في مثل هذا التعريف بالإمام الشافعي كبير غناء ، ولا يشفع للمحقق أنه أخذ هذا الوصف عن غيره ، أو أن عدوى أسلوب العماد قد سرت إليه فيه .

وفي الكتاب تطبيعات ، أثبت الفهرس الثامن أكثرها وفاته بعض ما لا يفطن جمهرة القراء إليه ، كذكره كتاب « معجم الآداب في معجم الأسماء والألقاب » (ص ٥) ، والصواب «مجمع الآداب في ....» ، وقوله : « والمثل مجمع في الأمثال » (ص ٣٨٥) وصوابه : « والمثل في مجمع الأمثال . » وقوله : « بكا على ما كان . » ص ٢٨٨ وهي «بكى ....» .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

... هذه الهنوات وأمثالها لا تقدح في محاسن هذه الطبعة النقدية ، ولا تعفي المنصف من إزجاء أطيب الثناء والحمد للمحقق الدكتور شكري فيصل ، فبجهوده وجهود ثلة من المحققين في هذا العصر أُتيح لهذا الجيل أن يطلع على الكثير من ذخائر تاريخنا وأدبنا ، مجلوّةً في أجمل عرض وعلى أصح نهج وأيسر سبيل ، وغدا فضل بعثها من خزائنها ، ونشرها نشراً علمياً لا تجارياً ، مشاعاً بين علماء العرب والمستشرقين .

* * *

وكلمة أخيرة ، هي أن (الخريدة) هذه الموسوعة الثمينة ، مقسمة الى أقسام ، اضطلع بتحقيق جزءين منها باحثون من مصر ، وجزء ثالث باحثان عراقيان ، وجزء رابع باحث دمشقي ، وولّى كلٌّ من هؤلاء وجهة مستقلة ، فكانوا طرائق قِدَداً في نهج التحقيق والشرح ووضع الفهارس ، وفي الاعتماد على الأصول ؛ واطلع بعضهم على مخطوطات لم يطلع عليها الآخرون فيُفيدوا منها ، وطبعت هذه الأجزاء بأحجام مختلفة ... فحبّذا لو تضامّ المجمع العلمي العربي والمجمع العلمي العراقي ، وأقرّا طريقة واحدة في نشر الأجزاء الباقية من قسم شعراء الشام والعراق ، ثم حفزا همة (الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية) كيما تشترك معهما في نشر أقسام الكتاب الأخرى التي لم يتصدّ أحد لتحقيقها ، كقسم شعراء العجم وفارس وخراسان وصقلّيّة والمغرب والأندلس ، وفي إعادة نشر القسم المصري على النسق الذي بقر الرأي عليه ، وفي وضع فهارس موحدة شاملة وافية للخريدة في أجزائها كلها ، ليعم نفعها ويسهل على الباحثين الرجوع إليها ، ولهم ولمن يعينهم على تحقيق هذه الأمنية وافر الشكر واصبا .

عبد الهادي هاشم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net